

نشيد رولاند

مدخل

الشعر :

جاء في سنة ٧٧٧ وقد يمثل أمراء مسلمين من الأندلس الى الامبراطور شارلمان لطلب مساعدته ضد واحد من أعدائهم ، الذي كان أيضا مسلما مثلهم ، وكان شارلمان مشغولا بالحرب ضد السكسون ، ومع هذا تقبل دعوتهم ، وبعد تركيزه بعض الحاميات لتقوية حدوده زحف الى الأندلس ومعه جميع قوائمه التي توفرت له ، وقد قسم جيشه الى قسمين ، قام قسم منهما بعبور جبال البرانس الشرقية باتجاه جرنده ، وعبر الآخر تحت قيادته جبال البرانس البشكنسية (الباسك) وأخذ اتجاه بمبيلونا ، وسقطت المدينتان والتقى الجيشان واتحدا معاً أمام سرقسطة التي حاصرها بدون نجاح ، وأرغمت تجدد أعمال القتال في بلاد السكسون شارلمان على التخلي عن حملته الأندلسية ، وفيما هو راجع يعبر جبال البرانس هوجمت ساقه جيشه من قبل طائفة متآمرة من البشكنس الذين كانوا قد زرعوا عدة كمائن على طرفي الممر الواقع بين الشعاب الجبلية الكثيفة الأشجار ، واستغل هؤلاء تعرجات الأرض وخفة أسلحتهم فانقضوا على جنود الساقه فقتلوهم حتى أخرج رجل ، ونهبوا قطار الأمتعة والمعدات ثم اختفوا تحت جناح الظلام ، وخدم المؤرخ ايكنهارد الذي روى هذه الحادثة التاريخية المحزنة في كتابه « حياة شارلمان » الذي كتبه حوالي سنة ٨٣٠ م ، ختم حديثه بقوله : « وقتل في هذه الواقعة ايغهارد حاجب الملك ، وأسلم كونت القصر ، ورولان دوق تخوم بريتاني مع أعداد أخرى كبيرة » ، وزودتنا مخطوطة أخرى من القرن التاسع حوت بالشعر اللاتيني ماكتب عن وفاة الحاجب ايغهارد ، بتاريخ المعركة بأنه كان ١٥ - أب ٧٧٨ ، وجرى ذكر هذه الواقعة مجددا

في سنة ٨٤٠ من قبل مؤرخ آخر ، كان قد قام أولاً باختصار الرواية المعطاة في كتاب « حياة شارلمان » ثم أضاف : « بما أن أسماء الذين سقطوا مدونة على السجلات لأجد حاجة لاعادة ذكرهم في روايتي »

واختفت بعد هذا حكاية رونسيذوفولدة تقارب المائتي سنة ، وعندما ظهرت ثانية الى الوجود كانت قد مرت بعمليات تحول كانت بلاشك ستدهشنا لولا أننا رأينا الشيء نفسه يقع في حكاية حروب الملك آرثر ، فقد فعل سحر الاسطورة فعله وتضخمت الحوادث التاريخية الصغيرة حتى غدت ملحمة واسعة ذات اجزاء بطولية واهمية عقائدية عالية ، فشارلمان الذي كان في الثامنة والثلاثين من عمره أيام الحملة الى الاندلس ، أصبح الآن شخصية عالية التقديس ، له مائتي سنة من العمر ، ملك لحيته بيضاء كالثلج ، انه الامبراطور المقدس ، بطل المسيحية والمحامي عنها ضد المسلمين ، وأمير الحرب الذي امتدت أعماله التوسعية فعمت العالم المتمسك ، وغدت الحملة حدثاً رئيساً في الصراع بين الهلال والصليب ، وتحول المغيرون البشكنس وتعاضم حجمهم وباتوا الآن عبارة عن جيش عملاق ضم آلاف مؤلفة من المسلمين ، واختفى اسم كل من ايغهارد وأنسلم من الساقية وبقي رولاند ، وبات الآن ابن أخت الامبراطور « والساعد الايمن له » وأعظم المحاربين في العالم يمتلك قوى خارقة وطاقات ، وهو بطل انجازاته الرائعة لاتعد ولاتحصى ، ويرافقه أولفر صديقه الحميم مع عشرة آخرين من الأتراب ، وهي عصابة مختارة من الفرسان الذين لا يوجد من يباريهم شجاعة ، انهم نخبة فرسان فرنسا ، وظل الكمين الذي ساقهم الى الموت نتيجة عمل خياني من الجانب الفرنجي ، غير أنه أصبح الآن قد كشف الغطاء عن أنه كان مؤامرة دبرها الملك مارسليون المسلم والكونت غاندلون وهو نبيل فرنسي ، كان زوجاً لام رولاند ، وكان الهدف الكامل من المؤامرة تدمير رولاند نفسه وأترابه ، ونشأت المؤامرة وتأسست نتيجة للغيرة القوية التي شعر بها غاندلون تجاه ابن زوجته ، وقد صيغت روايتها بشعور

درامي وشعور أخلاقي مع زوائد سيكولوجية ، يمكن أن تمتن عملية مقارنة مع دسائس ايغو المشوهة ، وباختصار بدأنامع كارثة عسكرية من الذوع العادي ، ولها أهمية صغيرة الى حد ما ، وحصلنا بشكل ما خلال قرنين من الزمن على ملحمة درامية رائعة ، لقد وصلنا الى نشيد رولاند .

وحسب معلوماتنا يبدو أن الشعر وصل الى شكله النهائي مع نهاية القرن الحادي عشر ، وليس من الصعب رؤية السبب الذي جعل الاسطورة تأخذ الشكل الذي أخذته ، وأيضا لماذا كانت شعبية في هذه الآونة ، فقد أصبح الخطر الاسلامي على المسيحية مزعبا مع نهاية القرن العاشر ، وقاد الى عدد من الحملات ضد مسلمي الأندلس مما كانت دوافعه بكل تأكيد دوافع دينية ، وفي الوقت نفسه أخذت سلسلة من الأقاويص البطولية والأشعار تطرح بالتداول على طول مختلف طرق التجارة ، وسبل الحجاج في اوروبا ، وهي أقاويص ارتبطت بأسماء بعض الأبطال المحليين وتعايشت مع المدن الهامة والأديرة المنتشرة على كل طريق ، وقاد طريق الحج الى معبد القديس جيمس الهام في كومبوستيلا الى المرز نفسه الذي عبرته ساقه جيش شارلمان وعانت فيه ما عانته ، فما الذي يمكن أن يكون أفضل موائمة للرحالة من أن يتعايشوا ويتسلوا بالنصوص التي تمجد المأساة المحلية ، زد على هذا لقد كان القرن العاشر هو القرن الذي شهد ذروة ازدهار النظام الاقطاعي وتطور قاذون الفروسية الذي ربط التبايع بروابط أداء خدمات دينية لسيدته ، وبالأخلاق كلها بحماس منقطع النظير لممارسة الحرب المقدسة ضد المؤمنين برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

ولدينا القليل من البيئات الخارجية حول نشيد رولاند وكما هي قائمة الآن يبدو أنها تتوافق مع البيئات الداخلية (المتعلقة باللغة ، والأعراف الاقطاعية والأسلحة ، والمحاكمات ، وربطت أسماء الشخصيات التاريخية بشكل خاطيء باسطورة شارلمان

ومسحت كل ماابدا معلومات أصلية عن المسلمين وبلادهم) التي أخذت أماكنها في نشيد رولاند - كما هو لدينا الآن - بعد وقت قليل من الحملة الصليبية الأولى ، واقد قلت كما هو لدينا الآن لأن اسطورة رولاند لا بد وقد وجدت في وقت أبكر بكثير ، وقد افترض شاعرنا وتصور لدى شروعه بحكاية قصته أن جمهور المستمعين كانوا يعرفون كل شيء حول شارلمان وأترابه وحول صداقة رولاند أولفر ، وحول غانلون ، وكان مثله مثل هومر يحكي حكاية موجودة في قلوب الرجال وذاكرتهم ، والأمر الذي لم يستطع الباحثون تتبعه بعد هو المراحل التي حول التاريخ فيها نفسه الى أقاصيص ، والأقاصيص الى ملحمة ، ولا بد أن رولاند دوق تخوم بريتاني كان شخصية هامة ، لكننا لانمتلك المزيد من اللمعات التاريخية حوله ، فلماذا وقع الاختيار عليه ليشغل دور البطل في الملحمة وتم اقضاء الآخرين الذين قاتلوا وقتلوا معه ؟ كيف تبدلت الحكاية وتحولت وبأي شكل ؟ أناشيد شعبية ؟ الأغاني ذات النوعية الملحمية البدائية ؟ نحن لانعرف وكل ما يمكننا فعله هو الارتكاء على العبارة الغامضة لكن المفيدة : « تقاليد شفوية » ، وأن نشير اذا شئنا الى كتاب السير موريس بورا الرائع الذي حمل عنوان « شعر البطولة » الذي أظهر كيف أنه يمكن بسرعة وبشكل غريب ، حتى في هذه الأيام في أجزاء من أوروبا الوسطى ، أن يتلى تاريخ هذه الأيام ليكون ملحمة للغد ، وشيء واحد مؤكد هو أن نشيد رولاند القائم بين أيدينا ليس تصنيفا عابرا لمجموعة من القصص الشعبية ، إنه عمل قام عن سابق تصميم ، وهوقطعة فنية رائعة ، ذات شكل واحد ، وراءها عقل بناء ، ساق جميع أحداثها وسماتها وفق نظام واضح ومتوازن بشكل جميل على العموم .

ولذترك بسرور الى العلماء النقاش حول الأصول ، فعملنا مرتبط بالشعر نفسه ، فنشيد رولاند ، يعد واحدا من أقدم الملاحم الفرنسية التي تعرف باسم « أناشيد الأعمال » وأكثرها شهرة ، وأعظمها مكانة ، وباختصار في الملحمة مايزيد على أربعة آلاف بيت من الشعر ، وهذا يعني أنها بدون شك ثروة أدبية

كبيرة ، لكنها ليست أدبا بالمرّة ، ويمكن لقوتها بالذات وبساطتها ومظهرها غير الفني أن تخدعنا وتجعلنا نراها أنها ليست بدائية فقط (وهي حقا كذلك) ولكنها فجة أو بالحري ساذجة ، لكنها ليست حقا كذلك ، ففي تصميمها توازن نبيل بين الأجزاء ، وإذا ما سائرناها فقرة فقرة وبخنا الى مشاهد المعارك نجد تحت السطر براعة سيكولوجية ذات أخلاق وحركة ، وهذا كله قد ترك لنا لذكشفه ، فقد كان الشاعر يذشد ويغني الى جمهور مزيج بشكل واسع ، جمهور يطلب قصة سريعة مثيرة فيها الكثير من الأفعال ، وهو لم يمتلك الوقت ليهدره في سبيل تحليل أدبي طويل على طريقة هنري جيمس أو ماريسيل براوست .

ان اسلوب الملحمة في الحقيقة أشبه ما يكون بأسلوب الدراما ، يدخل كل واحد من الممثلين فيتكلم ويمثل وفوق دور مسرحي مرسوم وتعليقات من القصاص ، وذلك من وقت لآخر كنوع من التوجيهات المسرحية في إخبارنا أن ذلك الانسان « متسرع » وذاك الآخر « عاقل » وتلك الحالة كذا وذلك الأمر كيت ، أو فلان « حزين أو « غاضب » أو « لديه اعتبارات مأكرة للذي سيوله » ، لكن في الجزء الأعظم علينا أن نراقب وأن نصغي وأن نستخرج لأنفسنا المحرضات التي حركت الممثلين ، والعلاقات فيما بينهم ، ونادرا ما أرينا ما فكروا به أو أخبرنا حول ذلك ، مما ليس له علاقة مؤكدة مع الدور ، وهناك بعض النقاط التي لم توضح أبدا ، وهكذا لم نخبر عن السبب الأصيل للنزاع بين رولاند وزوج أمه ، و فقط في نهاية الملحمة يلّمح غانلون بأن « رولاند أخطأ بحقه في المال والأملاك » وتركنا نخمن ماهي طبيعة الحكاية الأصل وكانت معروفة بشكل جيد من قبل الجمهور ، أو أن مسألة الغيرة بين ابن الزوجة وزوج الأم ، وهي أمور مطروحة في التقاليد الشعبية ، اتخذت أساسا لحكاية النزاع ، لكننا في الحقيقة لانحتاج لمعرفة هذه التفاصيل ، فالوضع العام جعل واضحا لنا بما فيه الكفاية من خلال الكلمات الأولى التي تفوه بها رولاند وغانلون ، وفي الحقيقة إن مشاهد افتتاحية الملحمة هي نموذج لما سيكون العرض

عليه ، وتخبرنا القصيدة الأولى باختصار بصورة الوضع العسكري ، وبدأ مشهد مجلس مارسليون بالعمل ليرينا بأن المسلمين جاهزين للقيام بأي عمل تأمري ، ويعرض مشهد مجلس شارلمان الكبير كافة الممثلين الرئيسيين في الجانب المسيحي ، ومع عرض سريع موجز يتضمن بشكل مؤكد الخطوط العريضة لسماتهم وأوضاعهم بالنسبة لبعضهم بعضا : فشارلمان هو في الوقت نفسه رجل حذر وحاسم ، وروланд شجاع الى حد التهور ، سهل الاثارة ، متعجرف مع سذاجة ادعاءات بطل ملحمي ، فهو مخلص ، وواثق من نفسه ومذفتح مثل النهار ، وكان أولافر مثله شجاعا ، لكن متعقل وحكيم ومدرك لنقاط الضعف لدى صديقه ، وأما الدوق نايمون ، فكان عجوزا حكيما في مشاوراته ، وأيضا توربين ، رئيس الاساقفة المقاتل ، مع تقديراته للأخريين ومسحة من الدعاية الحادة ، ولم يكن غانلون جبانا كما برهن مؤخرا في الملحمة ، وقد دعمت نصيحته في ابرام الصلح من قبل جميع رفاقه ، ولكن لسوء الحظ كان عليه بعدما أظهر رولاند ان اقتراح البعثة خطير ولا يمكن الوثوق بمارسليون ، ان يضرب ضربته بالحال ويعلن عن تطوعه ، فقد ترك الأخريين يتقدمون عليه ، وعارض شارلمان الذهاب ، وبذلك أظهر أنه كان أيضا مدركا للمخاطر ويتشكك بمارسليون ، ثم سمى رولاند غانلون ، وعندما صدر هذا عنه ، حملت الامور رائحة شيء من التحدي ، ولم يعترض شارلمان على برهان غانلون الغاضب في أنه يقدره أقل من تقديره لنايمون أو توربين وأقل من رولاند أو أي واحد من الأتباع الأثني عشر ، وجاءت ردات فعل غانلون من موقفه الصعب بالحال عبثا بقوله : « هذه مؤامرة للتخلص مني » وأما رولاند (المؤكد تماما أنه لم يحمل أية فكرة من هذا القبيل في ذهنه البسيط) فقد انفجر ضاحكا ، وهذا أنهاها ، واستبد الغضب والارغام والغيرة والانتقام للالهانة العامة على شخصية هي بالأصل غير مستقرة عاطفيا ، وسقط فريسة لأحزانه الشخصية ، ورأى نفسه قد جرح وأهين ، وتملكته رغبة شديدة بضرورة التخلص من رولاند بأي ثمن دون اقامة اعتبار للشرف والواجب ، وبدون اهتمام مطلق

بالنتائج ، وقد أوجد القرن الثاني عشر كلمة لوصف غاذلون هي « الهلوسة وانفصام الشخصية ، ولم يعرف شاعر القرن الحادي عشر هذه الكلمة ، ومع هذا وصف الحالة بكل صدق وأمانة » .

وما هو مثير للاهتمام ودرامي في منهج الشاعر هو الطريقة التي أظهر بها الحقيقة كاملة حول غاذلون ، فهي قد ظهرت مع مسيرة القصة تدريجيا ، فقد تركنا معلقين حوله ، ولم نكن في البداية متأكدين فيما اذا كان رجلا شجاعا أو جبانا ، وعندما رفض في حركة انفعالية عالية أن يسمح لحاشيته في مرافقته الى سرقسطة قائلا : « الأفضل أن أذهب وحيدا ، لأن أذبح خيرة الرجال معي » أخذنا وقتها كلماته على ظاهرها ، ولم يخطر ببالنا أنه لم يرغب بوجود شهود على المؤامرة الخيانية التي كان يحيكها ، وفي الحقيقة شهر سيفه فقط ، بعدما قام عن سابق تصميم بتحريض المسلمين حتى وصلوا الى حد الانفجار « وأسند ظهره الى جزع شجرة صنوبر » عندها نلاحظ أنه كان بعيدا عن الجبن ، وأنه هادئ الأعصاب ومقامر صعب ، جاهز ليخاطر بحياته في اللعبة الخطيرة التي كان يلعبها ، حتى عندما قدم للمحاكمة بقي متحديا وبكل جلد وهدوء أقر بخيانه مع دعاوى مسوغة بقذفه بالتهم ضد رولاند ، ولم تتخل عنه أعصابه - أن كانت قد تخلت - الا في اللحظة الأخيرة عندما لم يعد رأسه ويده تخدمانه ، وهنا صرخ لقريبه بينابل قائلا : « أتطلع اليك لتخرجني من هذا كله » لقد توفرت شارة لعجزه لكن ليس أكثر ، وبديهي أن تهمة الأولى ضد رولاند قامت على حق : فـ رولاند متسرع ، مثير للخصام ، أرعن ، وسلوكه تجاه زوج أمه يوحي أن الكراهية لم تكن كلها من جانب واحد ، والقصة التي حكاها غاذلون الى بلانكندرين (الأبيات ٣٨٣ - ٣٨٨) حول رولاند وعجرفته وسوء تصرفه مع التفاحة هي إما سمة مخترعة أو حقيقة ، وليس فيها شيئا غير ممكن ، ولا شك أن تقرير غاذلون العدواني حول رسالة شارلمان (الأبيات ٤٣٥ ، ٤٣٩) بعيد كل البعد عن الصدق ، لكن

يمكن - بحدود مانعرف - أنه عبر بصدق عما اعتقده غانلون أنه نوايا شارلمان ومقاصده ، وحتى التفصيل الزائدة (البيتان ٤٧٤ - ٤٧٥) المختصرة يمكن أن تكون « توقعات زكية مسبقة » وبناء عليه نعطي غانلون هنا مزية وأسبقية الشك ، لكنه عندما عاد الى معسكر الامبراطور وبين اخفاقه في احضار الخليفة كرهينة (الأبيات ٦٨١ - ٦٩١) من خلال خطة مرسومة وبيان أوضاع نعرف أنها كذب من الاول الى الآخر ، عندها نعرف اين نحن ، ولانميل بعد هذا الى تصديق قصة التفاحة ، أو أية تهمة صدرت عن غانلون ، أو أية كلمة قالها .

ومثل هذا ، من الممكن حتى أن نعجب خلال مشهد الاجتماع والمشاهد مع بلانكاندرين ومارسليون ، دقة غانلون وغيرته وحرارته في اخلاصه للامبراطور ، وكان ما أعلنه هذا التابع لدى مديحه لسيده : اذا لم يكن شيء ما سيء جدا بالنسبة لروланд مامن شيء سيكون طيب جدا لشارلمان ، ولكن عندما حيكت المؤامرة ، وكانت قيد التنفيذ ، وفيما هو راكب عائدا الى بلاده برفقة شارلمان سمعا صوتا ظن أنه لن يسمعه ثانية ، لقد كان نعيق بوق رولاند ، وهنا قال شارلمان : « اسمع ان رجالنا يحاربون » وأجابه غانلون بوقاحة لانظير لها : « لو أن أحدا غيرك قال هذا ، لكان كاذبا ، وعندما اصر الامبراطور انفجرت الوقاحة تقول بدون اعتبار :

لقد تقدمت بك السنون ، وشعرك شاب وبيض
وعندما تتحدث هكذا تتكلم وكأنك طفل

ليس فيه لايمان ولاصدق ولاأدب ، لأن عقله كله وشجاعته تعفنت ثم تعفنت ، ومع هذا لم يكن هكذا دوما ، فقد كان قد كسب حب رجاله ، وعده الفرنسيون بارونا نبيلًا ، ولا بد إن بعض الخير توفر بالرجل قبل أن تجرفه حرارة الغيرة وتلتهمه :

انتصب أمام الملك الكونت غاندلون
بجسم رشيق ولون نقي
وبدا سيذا جيدا ، أو لم يكن هذا زيفا
هكذا وصفه الشاعر بايجاز ثم تركه

ورسمت صورة شارلمان وصنعت من خلال عدد من الاقاصيص
وسمات لاتعد ولا تحصى عزيت الى شخصيته بحكم أنه الامبراطور
المقدس ، فالقداسة الامبراطورية هي وأعمالها تسلمها شارلمان عبر
الامبراطور قسطنطين ومن خلال الامبراطور جستنيان ، تسلمها
كامبراطور للغرب ، وبه بقيت ، وشارلمان من العمر مالا يمكن عد
سنيه ، أو بالحري هو العمر كله والوقت جميعه ، لأن ولده وابن
أخته من الشباب ، ولحيته البيضاء الكثة وقوته لم تتأثرا « بمائتي
سنة أو أكثر » وهما مثلان علويان ورمزان للأبوة ، فهو خليفة
الرب على الأرض ، ووالد المسيحية كلها ، وهو النموذج الأرضي
للأيام الخوالي ، واليه تتحدث الملائكة وتعطيه القوى العلوية من
عليين وتظله .

ونستخر . من تحت هذه الشخصية العظيمة ، التي هي أعظم
بحجمها من الحياة شخصية أخرى هي صورة الحاكم النديوي
المثالي : العادل والحكيم والعظيم والمؤمن ، ولقد بذل الشاعر
ما أمكنه من جهد بالنسبة لشارلمان ليرسم لنا تصور العصور
الوسيطة المبكرة لما ينبغي أن ندعوه في أيامنا هذه
الملك « الدستوري » فهو لم يكن « متسرعا بالاجابة » وما كان
ليقوم بشيء الا بعد الاصفاء الى آراء مستشاريه ، وقد امتلك - كما
يبدو - الحق في الاعتراض على أي اقتراح قبل عرضه على
التصويت ، وما أن ينال الاقتراح الموافقة الجماعية لمجلس
المستشارين حتى يرتبط بذلك القرار ، سواء أوافق عليه شخصيا
أم لم يوافق ، وفي هذا كان بكل عناية على عكس مارسليون الملك
المسلم ، الذي قاد بذاته معظم مناقشاته ، وامتنع عند بعض النقاط
بكل صعوبة عن رمي خنجره نحو رسول من الرسل الذي كان

عندما يستدعي مجلس مستشارية يفعل ذلك الذي قال انه سيفعله ، ورأى بعض الكتاب أن سلوك شارلمان الدستوري دليل على الضعف لكنني لا أرى أن ذلك ما عناه الشاعر مطلقا ، فهو قد بدأ وهو يعد ذلك صحيحا جدا بالنسبة لسلوك الملك ، مع أننا قد يساورنا الشك حول الحدود التي عكست حقيقة سلوك أي ملك في الفترة الاقطاعية ، وتقترب الصورة المقدمة من حالة الملك الانكليزي في يومنا هذا ، الذي يعطي موافقته على القرار بعد مروره بصورة قانونية على مجلسي العموم واللوردات ، هو يمكن أن يراه غير حكيم ، لكنه لن يحجب لهذا السبب الموافقة ويمتنع عن توقيعه.

ومجددا يقوم تحت هذا كله السمات الشخصية لشارلمان : قدراته السلطوية ، وأدبه ، وشجاعته ، وقوته ، وعمق مشاعره الدينية ، وصداقته مع نايمون ، ومشاعره الحارة تجاه ابن اخته وأترابه مع جميع « الشباب العزابة » الذين دعاهم « بأبنائه » واعتاد ان يركب فرسه وأن يقاتل بين باروناته بمثابة البارون الأكبر بينهم جميعا .

وهنا أيضا ، علينا كما رأى أن نلاحظ وجود نقطة ضعف به ، وذلك عندما غلبه الحزن لدى موت رولاند ، الى حد أنه فقد وعيه وسقط فوق جثته ، وحتى أنه احتاج الى مساندة باروناته ليتمكن من النهوض وهو يتفوه بكلمات الندب والبكاء ، لقد كانت هنالك طرائق لاطهار المشاعر كما لكل شيء ، ففكرة أن الرجل القوي ينبغي ان تكون رداً فعله تجاه المصائب الشخصية والوطنية بظهور بعض التأثير على شفثيه ، وبرميه بكل هدوء وصمت بسيكارته في قلب موقد النيران هي فكرة ذات أصل حديث ، وبالنسبة لمعايير العصر الاقطاعي كان مسلك شارلمان صحيحا تمام الصحة ، ففقدان الصواب ، والبكاء والنحيب هو ما كان يستدعيه الحال ، وقد حذا جميع الفرسان والبارونات المحتشدين بشكل علني حذوه ، وبكوا وانتحبوا وندبوا مثلما فعل :

شهو مئآت الالوف من الفرذسفن حزنا
وما من واحد منهم إلا وبكى وعلا صوته بالحبفب
وفف نهافة هذا الفصل :
ومزق لصفته التي كانت بفضاء كالثلج
واقطلع من رأسه شعره الأبيض من الجذور
ومئآت الالوف من الفرذسفن انحبوا مثله وأكثر

وفمكن ان نأخذ هذه الاسطفابة على أنها طقفوسفة
وشعرفة ، فالحزن مثل كل شفة فف الملحمة تم عرضه بشكل مكشوف
أكثر مما نفعل نحن الآن ، لفس هناك من سبب لكي نفترض أنهم
تدربوا على أفقدان الوعى بعبدا عن الناس ، وهذه الحركة كانت
تلاقي القبول منهم ، فهذا ما كانوا فرغبون رؤفة الناس فقومون
به ، فف كل عصر فحفظ لنا الفن بالنموذج المحفنى
بالسلوك ، وهو ما تسعى الحافة الحقيقية لتأكفده بكل ما
فمكن ، ولا فمكننا أن نستخلص من بكاء شارلمان وسقوطه مغشفا
علفه أفة محصلات حول أخلاقه ، باستثناء أن الشاعر قدمه كمثمل
نمونجف حول اظهار الرجل لشاعره ، وفقا لمعايير أحاسفس تلك
الفترة .

ولدف مقارنة أخلاق رولاند وسماته ببراءة ودهاء غانلون ، نجده
بسطا فف ذاته ، متسرعا ، متعجرفا وكرفما ، فكره الأخطاء
وففضحها ، مخلص ، وانفعالي ، متفرد بتفكفره ، إنه حمل فمفع
السمات التي أحبها الرجال فف قائدهم وتعلقوا بها مع صورة البطل
الرومانسفة المقدمة للجمهور ، ولم فكن لفه أنفى مكر ، وكانت
عقول الناس الآخرفن بالنسبة له كتابا مغلقا ، ففف البداة رفض أن
فصدق فخانه غانلون ، وعندما تمت مواجهته بالحقفة ، كل ما
استطاع الففام به هو أنه افترض أن الجريمة قد اقترفت من « أجل
الذهب » وفف الحقفة لم ففهم مطلقا السبب الذي جعل أولفر غاضبا
منه ، ولم فقدر أبدا القدر الذي اسهم ففه كبرفاؤه وحمافته فف مأساة
رونسفو ، لقد امتلك سذاجة أخفل وغروره ، مما سفدمر الحملة

وذلك من أجل الكبرياء الذاتي ، ولكنه كان انسانا أكثر لطفا من أخيل ، فهو لم يشمت قط أو حمل حقدا ، وقد تحمل انتقادات أولفر بطبع هادىء لطيف ، وكان تحت « جديته المتطرفة » تسامح حقيقي في القلب ، وبساطة كبساطة الأطفال في الحب والاخلاص : للرب وللإمبراطور ، ولأصدقائه ، ولرجالها ، ولفرسه ، ولدورنالد سيفه الطيب ، ومشهد موته مثير بشكل غريب

ولكن الصورة التي تبقى أكثر اشراقا معنا هي صورة الشاب المسرور الذي لا يقهر فما من ملحمة تضرب على هذا الوتر بمثل هذا الوضوح :

مضى رولاند خلال بوابات اسبانيا عابرا على ظهر فرسه
نحو فيلانترف ساق فرسه مسرعا
وكان هو الذي مضى شاكي السلاح
مضى بشجاعة يهز رمحه عاليا
نحو السماء رفع سنان رمحه بعيدا
وربط على قناته ريشة بيضاء كالحليب
وكانت حوافها تلامس يده عند المقبض
وسار مرافقه خلفه مجنين
وأعلن الفرنسيون جميعا عنه أنه حاميمهم
وألقي نحو المسلمين نظرة كبرياء
لكن ما ألقاه نحو رجال فرنسا كان لطيفا ناعما
فإليهم تحدث دوما من قلب ودود

وهكذا ساق داخلا الى ذلك العالم المنظف حديثا ، ذي الشمس الواضحة

والألوان البراقة التي ندعوها العصور الوسطى (مع أنها كانت في عمرها الوسيط) لكن لعلها امتلكت حقا أكثر من صيف النهضة المتفجر الذي سيدعى بعصر الولاية الجديدة ، إنه عالم مليء

بالدماء ، والحزن ، والموت ، والوحشية العارية ، ولكن أيضا عالم العواصف الصريحة ، والبساطة البريئة ، والطافح بالثقة بالنفس ، إنه عالم فقننا الاتصال به كلية الى حد التورط في استخدام كلمات « اقطاع » أو « عصور وسطى » كمجرد عناوين لظلام دامس ، وأي انسان يرى بارقة ضوء في ذلك العالم يتعرض للاتهام بمرض رومانسيه الحنين الى العصر الذهبي الذي لم يوجد قط ، لكن شخصية رولاند تقف هناك لتكذبنا : فقد كان في عصر الشباب كما رأى ذلك العصر نفسه ، وبالمقارنة معه إن مفامري الفضاء والاطفال اللامعين في أيامنا ، ليسوا أقل من الرجال القساة الأشداء في ملحمة من عصور النهضة ، يبدو أنها ولدت وسيطة العمر .

« كان رولاند حادا وكان أولفر عاقلا » وكان أولفر رفيق رولاند ، نشأ وتربى معه ، ووفقا لتقاليد وممارسات تلك الأيام شاركه أعماله وتدريباته ، كما أظهر بعضا من طباع الهدوء والصمت ، والعناد التي هي سمات عامة توجب تقليديا توفرها في « صديق البطل » وكانت الحكمة بمعنى الممارسة العقلانية ثمينة لكن لم تكن للعرض

أو ربما سمة محبوبة جدا ، فلقد كانت حياة ماري استيورات التاريخية المساوية ، وليست حياة اليزابيث تيودور الحذرة والماهرة ، هي التي ألهمت طريقها خلال صفحات الأناشيد الشعبية والرومانسيات ، وكان أولفر عسكري أكثر اتقانا من رولاند وأعظم اهتماما وتمسكا بالاستلزمات العسكرية منه بسامعته الشخصية ، فقد كان يعتلي الهضاب قبل المعركة ليستطلع أوضاع الأعداء ويعرف أعدادهم وأوضاعهم ، وهو عمل بالنسبة لمعايير أناشيد الأعمال نادرا ما عد من أعمال السادة ، وكان حين يجد الأمور شاذة وغير معقولة كان يحرض رولاند على طلب المساعدة ، وهو أمر كان البطل يراه مما يحط بكبريائه ، وكان يمضي عابسا وواجما الى عمل كان يعرف مسبقا أنه غير

ممكن ، وكان لا يرمى الامور الخيالية ولم يكن رومانسيا ليشعر
بالسرور عندما يعرف أن « انسانا ما اقتترف خطأ » ، فهو لم يكن
وضعه مشرقا مثل وضعب رولاند ، فقد كان قادرا على المثابرة
بالرفض ، وعندما يتبرهن أن ما حذر منه بنات صحيحا ، كان
يخاطب رولاند قائلا بأسف : « لقد أخبرتكَ بذلك » .

يارفيق أنت الذي وضعتنا في هذا الاربك
هناك شجاع حكيم وهناك مهمل
الحكمة أسوأ بكثير من حماقة
فمن خلال تعقلك ابك الآن على الفرندسيين المدمرين
إننا لن نكون ثانية قادرين على خدمة شارلمان
لو أنك أصغيت قليلا لما قلته
لجاء مولاي ومضت المعركة على خير ما يرام
وكان الملك مارسليون هو الآن أسيرا أو قتيلا
إن شجاعتك يارولاند لعنة على رؤوسنا

هذا صحيح جدا ، وليس من الكرم أن تمشح الامور هكذا في
ساعة المساة ، ولعل الذي بات طبيعيا هو أن تقع المسؤولية تحت
نير اللامسؤولية ، وذلك مهما كانت ذكية وعبرت عما في نفسها
هكذا ، وعلى كل حال إن عددا كبيرا من النساء المتزوجات
سيتعاطفن مع أولفر .

وكان له كبرياؤه ، وقد غضب ، وانزعج وتآلم ، عندما قرر
رولاند بعد طول انتظار استدعاء شارلمان وذلك بعدما رأى أن قوات
المؤخرة التي تحت امرته قد نقص عددها من العشرين ألفا الى ستة
ألاف رجل فقال له : « عندما طلبت منك فعل ذلك ، لم تستجب ، ولو
أنك فعلت لما خسرت اليوم ولأنقذت رجالنا ، وأن تفعل ذلك الآن
(يعني عندما لم يبق أحد للانقاذ غيرنا) سيكون عارا ، وتدخل
رئيس الاساقفة بقوله : صحيح أنه لا يمكن انقاذ أي انسان
الآن ، إن لشارلمان القدرة على الانتقام لهم ، وأن يدفنهم بشكل

مسيحي لائق ، وخضع أولفر لهذه المناقشة الرائعة بصمت ، فقد كان هناك بالفعل رئيس أساقفة للرايمز اسمه تليبيدوس وذلك في نهاية القرن الثامن ، ولكن لعل صورته في الشعر تبين كثيرا للخيال أكثر منها للحقائق ، وهذا لا يعني مطلقا أنها صورة غير ممكنة ، فرجال الدين المقاتلون عرفوا بشكل جيد في التاريخ المسيحي ، ولكن من المؤكد أن توربين كان بطلا متميزا بشجاعته وبجاذبيته الشخصية ، وقد عامله الشاعر بتشريف خاص ، فقد أعطي مكانا متميزا في الهجوم الأول الذي قام به المسلمون وذلك بعد كل من رولاند أولفر مباشرة (البيت ١٢٤٣ وما يليه) وأعطي في الهجوم الثاني شرف « افتتاح المعركة » (البيت ١٤٨٧) وكان هو آخر من ترك ليقف الى جانب رولاند عندما كان البقية قد قتلوا ، ولقد انتمى توربين الى عصر كان - عندما كتب نشيد رولاند - قد شارف على الانتهاء ، وهو عصر عاش فيه الراهب العلماني قريبا جدا من الراهب الليني ، وفي فترة متأخرة إن اشارة توربين الناقدة لحياة الرهبنة (الأبيات ١٨٨٠ - ١٨٨٢) قد جاءت غريبة جدا بخروجها من شفتي رئيس الاساقفة ، وكما علق مارك بلوخ « يبدو أن الاصلاح الغريغوري لم يكن قد وصل بعد الى شاعرنا » ومع هذا عندما صرخ الفرنسي : « حسنا هل يدافع عنا اسقفنا بصولجانه » (أو بحرفية أكثر « بالنسبة لرئيس أساقفتنا صولجانه قوي للانقاذ ») وقد حملت الكلمات معنى مزدوجا ، أي أن توربين كان مع كل سماته القتالية ومؤملاته ، رجل كنيسة صالح وكاهنا جيدا ، فقد كان عاقلا في مشاوراته ، ففي منطق قوي طيب وبلطف ، لكن مع سلطة قوية ، تمكن من اجمال الخصام بين رولاند وأولفر ، وجاء خطابه الى العسكر نمونجا للشجاعة والتقوى البسيطة ، وقد تحمل واجباته الكهنوتية بجدية ، وكان آخر عمل قام به قبل أن يموت هو محاولة بطولية لمساعدة انسان آخر ، وهناك لمسة خاصة في بكاء رولاند عليه وندبه له :

انت يا طيب الذكر رجل جيد وفارس نبيل
إنني أعهد بك الآن الى رب القدرة

- ٤٠٩٤ -

فهو لن يجد عبدا أكثر طاعة منك
فمنذ أيام الرسل لم يكن هناك نبي مثلك
في الحفاظ على العقيدة وكسب الرجال
أرجو الا تلاقى روحك أي عائق في تحليقتها
ولتفتح أبواب السماء لاستقبالك

ولعل هذا هو المكان المناسب لنتحدث فيه عن الروح المسيحية
لشعر الملحمة ، فهذه الملحمة ليست مسيحية في موضوعها
فقط ، إنها مسيحية في كل مفصل من مفاصلها ، ومامن مكان آخر
جرت تحته مجاري العقائد القديمة ثم نبعت على السطح على شكل
مسيحي كما حدث هنا ، وليس هناك خوارج غير الخوارج
المسيحية ، وهدف هذا التأثير فقط (بحكم كونه مسيحيا صرفا)
على عقول الرجال وأعمالهم وليس لتقديم آلية حركة
للقصة ، والمسيحية هنا هي المسيحية البسيطة غاية البساطة
والمعقدة كثيرا حسبما هي موجودة في أبسط القرى وفي
الكنائس ، ورجال العزف هؤلاء في أعمالهم قد تمت دعوتهم للوفاء
بواجبهم تجاه إيمانهم وتجاه الامبراطور ، وسيؤخذون عندما
يموتون ليستلقون على فرش من الورود بين - بشكل غريب ولكنه
موائم - الأبرياء المقدسين ، وسيسكنون الفردوس مع الرب
وملائكته ، وسيصلون وقتها للرب نفسه مباشرة ، دون تدخل
القديسين ، وكما أرى دون تدخل أم الرب ، فالسألة باتت على
درجة عالية من البساطة .

والبساطة لا تعني الجهالة أبدا ، ويبدو أن الشاعر لم يكن راهبا
أو منتظما بالسلوك الكهنوتي لاحدى التنظيمات الكبرى ، كان
قسيسا فقط يملك ما يكفي من معرفته بالكتابات المقدسة وآداب
الكنيسة وعقيدته صحيحة كما هو واضح من خلال عمله ، ولكنه
كان مثله مثل غالبية معاصريه المسيحيين يمتلك أفكارا غامضة حول
ديانة المسلمين ، وهكذا كان المسلمون بالنسبة له مجرد (بينميز)
(أي كفار) ولذلك كانوا (بالحري) وثنيين كانوا يعبدون مثلنا

جهنميا كون بشكل غريب عجيب من مهوند (محمد صلى الله عليه وسلم) وتيرماغانت (شخصية عامية ذات أصل مجهول) وبشكل غير متوقع مطلقا - أبولو الذي مسخ في مجريات الحوادث الى « أبوليون الشيطان الاحمق » الذي اعتدنا على معرفته من خلال « تطور الحج » وحملت نصب هذه « الالهة المزيفة » أمام الجيوش الاسلامية وتمت عبادتها بوساطة الجثو على الركب ، وعندما تنزل مصيبة بالكفار ، تراهم يغضبون ويتصرفون بطريقة وحشية مجذونة ، وعقيدة (يعني شريعة) « مهوند وتيرماغانت » موجودة في كتاب ، وهنا لا نعرف حقا فيما إذا كان الشاعر قد عرف بوجود القرآن ، أو أنه افترض فقط على أساس شروح الكتاب المقدس - أن كل بيانة لا بد أن يكون لها كتاب مقدس من نوع ما (وكان هذا الجهل متبادلا ، ويمكن أن يرى من قبل أي انسان يحرص على معرفة الروايات عن العبادات المسيحية والعبادات حسبما عرضت جزئيا في ألف ليلة وليلة).

وجرت محاولات لطيفة لتفريق العادات الشرقية عن العادات الغربية ، فمارسيلون ملك الكفار اعتاد على عقد مجالس مستشارية وهم مضجعون على المرافق أو الدواوين ، في حين جلس شارلمان منصبا على مقعد (كرسي أو عرش) ، وانحصر استخدام رمي الحراب وبقية أنواع الأسلحة المذوذة بالجيوش المسلمة ، ويوحى حصار سرقسطة أن الشاعر حمل في ذهنه صورة المدن الاسلامية ذات الاسوار العظيمة في الأندلس ، حيث كان فن التحصين متقدما كثيرا على نظيره في شمالي أوروبا ، ولعل من المهم أيضا معرفة ان الامير باليغانت قد وعد عساكره ليس بالفنائم فقط ولكن « بالنساء الشقراوات » وذلك جزاء على شجاعتهم ، ومهما يك من أمر كان المجتمع الاسلامي بشكل عام - سواء أكان في حالة مواجهة للمجتمع الغربي أم لا - يتسم بسلمات بناء المجتمع الاقطاعي نفسها ، كما أن الشاعر المسيحي لم يكن غير كريم نحو الاعداء ، فصحيح أن مارسيلون كان مخادعا واميرا مطلق السلطات بالمقارنة مع ملكية شارلمان « الدستورية » لكنه كان

شجاعا ، وكانت الشجاعة الشخصية متوفرة على كلا الجانبين ، ومع أن عدداً من الأبطال المسلمين اتهموا بالخداع وبالتأمر الرهيب المرتبط بالشياطين والسحر ، إنهم لم يستخدموا قط بشكل غير صحيح الأعمال العسكرية المؤيدة بالسحر ، وكان كل شيء صحيحا ، والقتال نظيفا ، ولم تكن شخصية صلاح الدين العظيمة الفروسية قد قامت بعد لتجذب الإعجاب الفرنجي ، لكن سمعة المقاتل المسلم انتصبت عالية وكانت محط إعجاب غير مشوب

جاء من بالاغويت أمير
شكله شكل نبيل ، عيناه شجاعتان ونقيتان
وعندما يمتطي ظهر حصانه للقيام بمهمة
يحملة بشجاعة شاكي السلاح للمعركة
وكانت شجاعته معروفة من القريب والبعيد
وهو وإن لم يكن مسيحيا ظهر بمظهر فارس صحيح

ولم يتم التغلب على رولاند واتباعه بالعدد المتفوق ، بل واجهوا عدواً كان كفئاً لسلاحه وجديراً به ، وهذا يعني من بعض الجوانب أنه لا يمكنك صياغة ملحمة حول صراع حيث جميع السمات البطولية موجودة فيه في جانب واحد

وجاء وصف مشاهد المعركة مزوداً بما لا يحصى عنه من المقبلات ، ومن وجهة نظرنا بتطويل ممل ، لكن علينا أن نتذكر أن الأعمال الحربية وفنون القتال كانت بالنسبة لشعب العصور الوسطى أكثر من مجرد دعوة تسلية ، لقد كانت أعظم الأعمال الرياضية وأهمها تمتع الشعب بتفاصيل القتال ، وبإحصاء وعد مختلف المقاتلين الذين اشتركوا بأعمال القتال مثلما نتمتع في أيامنا هذه في سماع التعليقات المذاعة حول مباراة رياضية أو تصفية نهائية لكأس ما ، وذلك مع إعطاء ملاحظات حول حياة كل واحد من اللاعبين .

وتمت الاعمال القتالية كلها من على ظهور الخيل ، وجرى استخدام السلاحان النييلان فقط وهما الرمح والسييف ، ولم يرد ذكر للرجالة ، أو للنبالة الذي شغلوا دورا هاما في معركة هيسنغ ، وجاء هذا من بعض الجوانب ليتواءم مع صياغة الملحمة ، ولكنه كان صحيحا تاريخيا من جانب آخر ، في أنه في تلك الفترة شغل هجوم الفرسان الدور الاعظم في المعركة ، وما من واحد من الفرقاء توفرت لديه رغبة قوية في اذقال اي جيش بأعداد كبيرة من المشاة ، لاسيما في البلدان الأجنبية حيث سرعة التحرك كانت اساسية ، عندما كان الامر يتطلب قطع مسافات شاسعة عبر طرق قليلة وسيئة مع تسهيلات فقيرة للتدقل والتزود بالمؤن.

اما بالنسبة لاعمال اصحاب المراتب والافراد فإن مازونا به قليل ، وفيما عدا ذلك تبادل الفرنسيون والمسلمين الضربات أثناء اللقاء بشكل عام ، وتم التركيز في جميع الاماكن على المبارزات الشخصية بين القادة على كلا الجانبين ، وسنلاحظ هذا الشيء نفسه في الروايات التاريخية الجادة حول معارك العصور الوسطى، وهذا ثانية لم يكن مجرد قانون ، ويظل الاننى (كما يونا بعض الكتاب أن نعتقد) هو اظهر الروح « غير الديموقراطية » أو عدم التقدير للانسان العادي ، ولقد توفر سبب عملي جدا لهذا الحال ، ففي ظل النظام الاقطاعي كان على واحد من البارونات الكبار خدمة الملك في المعركة ، وأن يجلب معه كل ما يتوفر له من الاتباع المسلحين ، الذين جلب كل واحد منهم بدوره ما توفر له من الاتباع الاننى الخاصين به ، وهكذا نزولا الى اننى مستويات الطبقية ، وكان كل تابع مرتبطا بيمين الولاء نحو سيده وسيدته فقط ، « طرأ استمرار حياتهم » ، ونتيجة لهذا اذا ما قتل سيد كبير في المعركة كان اتباعه يتحررون بشكل آلي من ولائهم ، وكان بإمكانهم - وهذا ما فعله بعضهم - عدم متابعة القتال والايأخذوا المزيد من الدور فيه ، ويطبق الشيء نفسه اذا ما وقع بالأسر أو هرب من ميدان المعركة ، فالاتباع وقتها يتركون بلا قائد وقد يميلون الى

التميز وعدم الاندماج بغيرهم ولهذا كان عظيم الأهمية ان يقود السيد رجاله ، وأن يقاتل باقدام ظاهر

وأن يجهد (بقدر الامكان) في أن لا يقتل أو أن يرجل من على ظهر حصانه ، حتى لا يبتعد أتباعه عن مشاهدته فيفقدون شجاعتهم ، ولهذا السبب أصر غانلون كل الاصرار أنه اذا ما أمكن التخلص من رولاند ، فان زهرة الجيش الفرنسي ، الذين كان معظمهم من أتباع رولاند سيتفرقون ، وهذا هو السبب أنه عندما أصيب مارسليون بجراح وهرب ، نكص الجيش المسلم كله على أعقابه وهرب ، وحدث مثل هذا في المعركة النهائية الكبيرة حين جاء الامبراطور شارلمان والامير باليغانت ، سيد المسلمين جميعا ، للتقابل وجها لوجه ، وتعلقت نتيجة الحرب كلها على مبارزتهما ، وسقط باليغانت ، وهرب الجيش المسلم كله في تلك اللحظة من ميدان المعركة .

وحملت الملحمة اسم « نشيد رولاند » لكن النصف الاول منها هو الذي يتعامل مع انجازات رولاند نفسه ، فهو وقد مات (البيت ٢٣٩٦) في نهاية وقفته الكبرى مع قوات المؤخرة ضد هجوم الملك مارسليون الغدار ، وتعلق القسم المتبقي من القصة بالانتقام الذي قام به شارلمان لموته ، ولما قتل الأحد عشر رجلا من الأتباع الآخرين والعشرين ألفا من الفرنسيين الذين قتلوا معهم ، وبالنسبة لمعايير تلك الأيام كانت الحكاية ستتترك غير كاملة بدون الانتقام ، وكان اسم شارلمان سيبقى تحت الرغام لانه سمح لمقتل واحد من أتباعه أو أقربائه أن يعبر دون أن ينتقم له ، فذلك كان سيبقى شيئا مشينا ، لكن في الملحمة أمر أكبر من هذا ، هناك مسألة تتعلق بمجال الملحمة كله كملحمة وبعملها ، وبحق رولاند في أن يحمل لقباً ملكياً .

عندما تعاملت أولاً مع نشيد رولاند ، وكنت وقتها تلميذة جامعية ، تقبلت آنذاك الأحكام الرائجة وقتها والتي أطلقت على

الجزء الثاني من الملحمة ، فوقتها قال غوستاف لاندسون : « أنا لايمكنني شخصيا الا أن اضع نفسي الى جانب الذين يرون أن انتقام شارلمان من الامير باليغانت والامير مارسليون مجرد اضافات رخيصة صممت لمديح العبت الوطني على حساب الشعر » ولدى قراءتي الملحمة مجددا بعد مضي أربعين سنة ، وذلك بقصد ترجمتها وجدت من المستحيل أن اضع نفسي الى جانب أولئك .

ويعود ماحدث خلال تلك الفترة لسبب واحد ، هو التغيير والتحول من الفكرة الرومانسية حول طبيعة ومقصد الشعر الملحمي الى الفكرة الكلاسيكية ، فمع نهاية هذا القرن كانت ماتزال الاهتمامات تميل نحو التركيز بشكل ضيق على سحر التعاطف الشخصي واستغلال الاوضاع المثيرة ، فقد قامت سمعة الايانية على ادوار هكتور وأندروماخ ، واللقاء بين بريام وأخيل ، ومثل هذا من « الجماليات » المنتقاه ، وثمرت الانياذ بسبب أحزان بيدو ، والكوميديا الالهية بسبب حادث باولو فرانسيسكا والرعب اللطيف لاغيليندو في برج المجاعة ، لكن الاطار الفكري الأوسع وهيكلته أن يغوص المرء في جسم الحكاية في سبيل انتقاء بعض اللقطات « الشعرية » راسخة في عقول عدد من مخرجي الافلام ، وهؤلاء الذين ينتجون نصوصا مصنعه من حكايات كلاسيكية ، أو يعرضون علينا هومر والكتاب المقدس بصورة ساخرة وتقنية عارية ، ومفيد لهؤلاء الذين يأسفون كثيرا بسبب آخر النتائج أن يتذكروا أن كثيرا من البذور المنحطة بامكانها الافتخار عاليا بأجداها المحترمين ، لكن ماعاد بالامكان لدراسة نقدية جادة أن تتبنى الميول الرومانسية ، إن عليها القيام بدراسة الملحمة الشعرية ككل .

واذا ماقمنا الآن بتفحص رأي لاندسون في ضوء رولاند نفسه سنجد ان ماقام به بالفعل هو أنه تعامل مع الحقائق بالطريق المعكوس ، حيث أنه ليس القسم الثاني من الملحمة بل القسم الأول هو الذي صنع لتلبية العبت الوطني ، فقد تكونت قووات المؤخرة

المشهوره كلياً من « رجال فرنسيين من فرنسا » وعندما سأل
مارسليون على من يعتمد شارلمان في انتصاراته العسكرية ، أجابه
غانلون : « على الفرنسيين » وكان الامبراطور في مجلسه « لا يصنع
شيئاً الا بناء على نصيحة الفرنسيين » ، وقدمت لنا الحرب نفسها
في البداية على أنها صراع على السطوة بين « مسلمي
الاندلس » و « مسيحي فرنسا » لكن من أجل هذا كله بشكل رئيس
بين اسبانيا وفرنسا ، و فقط بعدما سقط خيرة فرسان فرنسا
أمواتاً في رودسيفو ، وهرب مارسليون الى سرقة بعد اصابته
بجراح مميتة ، انبعث قائماً خلف شخصيات الابطال الفرنسيين
والملك الاسباني النصبان العملاقان للأمير والامبراطور ، للشرق
والغرب ، للاسلام والمسيحية ، ان العالم مفتوح أمام أعيننا ،
وبما كاننا أن ننظر عبر سرقة إلى الاسكندرية ، لا بل الى بابل
الحكايات ، « فمن أربعين مملكة » جمع باليغانت قواته ، وحارب
بها ضد الفرنسيين ، للمرة الأولى نرى « الفرنجة » ونسمع
بصوت جميع العالم المسيحي ، ففي المواجهة النهائية للمعركة
الكبرى الأخيرة التقى شارلمان وباليغانت وجها لوجه :

قال الأمير : فكر يا شارلمان وانظر في
ان تعتذر الي من كل ما اقترفته بحق
لقد ذبح ابني وأعرف أن ذاك تم من قبلك
واقترفت الآثام على أراضي التي أخذتها
كن واحداً من رجالي وسأكون مولاك
ثم تعال واعمل في خدمتي من هنا الى الشرق
وقال شارلمان : لا ، أنا أعد ذلك خيانة
لن أظهر لمسلم أنني حب أو سلام
أمن أنت بما أوحاه الرب
اعتنق المسيحية وعندما سأكون صديقك الأول
وقال باليغانت : « طقوسك » ماهي الا دعوة مريضة
ومجدداً حارب أحدهما الآخر

وتم أخيرا التفوة بالكلمة التي توجب التفوه بها منذ زمن بعيد : « لن أظهر لمسلم أننى حب أو سلام » ، ولا بد أنه تم التفوة بها في ذلك الاجتماع الأساوي الاول ، ولكن شارلمان مع أن عقله وضميره قد غفرا له ، استشار الفرنسيين ، واختار الفرنسيون - بعد اقناعهم من قبل نايمون وغانلون - السلام من أجل السلام ، وصحيح أن مارسليون قد وعد - اذا ما أزيل الخطر العسكري - أن يعتقد المسيحية ويقدم الولاء للإمبراطور ، لكن هل يمكن لرجل قادر على قتل السفراء ، أن يفى بمثل هذه الوعود خلال ثلاثة أشهر ، أو يعطي أننى قيمة لحياة رهائته ؟ وكان شارلمان عندما سمع بالعرض للمرة الاولى ، المبح أن لديه بعض الشكوك حول ما كان حقا في ذهن مارسليون ، لكن هذه النقطة لم تناقش أثناء الاجتماع ، وكان رولاند وحده المصمم على عدم الوثوق بالمسلم ولو لانش واحد ، فقد أراد استسلاما كاملا ، وفق شروط يفرضها المنتصر ، ولسوء الحظ أعطى الانطباع بشدة أنه أشار بالرأي الصواب من أجل سبب خاطيء ، وأنه أراد الحرب من أجل الحرب فقط ، وأخذت الدبلوماسية طريقها ، ونسي المسيحيون ، وكان هذا هو الذنب الذي سبب وقوع المأساة ، وتم التلاعب بالحكمة الننيوية بشكل خياني من قبل غانلون ومارسليون ، وكان الثمن فقدان الرفاق الاثني عشرة مع العشرين ألفا من الفرنسيين ، وفي النهاية كان لا بد من مواجهة النتائج ، وقبل كل شيء أرسل مارسليون رسولا الى معسكر الامبراطور يخبر أن باليغانت قد أبحر من الاسكندرية .

وهكذا حددت الخطوط العظمى للمحنة نفسها ، هناك حرب خاصة نشبت داخل حرب وطنية ، والحرب الوطنية ثانية داخل حرب عالمية بين الصليب والهلل ، وقد هز الصراع الصغير في المركز الهيكل بأكمله ، وما فعله الشيطان كان من غير الممكن منع حدوثه ، وقضى الرب بقضائه الحق ، فكان أن قتل مارسليون وباليغانت ، وتم الاستيلاء على سر قسطة وطلب من أهلها أن يختاروا بين الموت والتعميد ، وتحولت الملكة براميموند بكل

سلام ، لكن رولاند مات وأترابه ماتوا ، والحرب بين المؤمنين وغير المؤمنين مستمرة هناك بلا توقف ، وسأل مارسليون عن شارلمان قائلا : « انه رجل مسن ، ومتى سيتعجب من الذهب الى الحروب ؟ وأجابه غاندلون : « لن يتوقف مطلقا مادام رولاند حيا ومتى مات رولاند سنمتلك السلام » لكن ذلك كان كذبا ، صحيح انه بات مسنا ، لكنه يبذل كل ما أمكنه لتقويم المساعدة ، فضلا عن انه - أي شارلمان - ما يزال عبدا تابعا للمسيح ، ما انذك يقول : « لن أظهر لمسلم أنني حب أو سلام » ولقد استدعاه الملك وأمره بالذهاب :

قلب شارلمان صغير حتى يتحمل أعباء السفر والقتال
وقال الملك : « يا الهي كم هي حياتي متعبة »
وبكى ثم ربط لحيته البيضاء المتطايرة
هنا نهاية سجل الأعمال

انتهت الملحمة مثلما انتهت الايالة والايناد ، بمفتاح صغير ، ومع نهاية الانشاد لا أرى أن هناك ما يمكن خشيته من عقد المقارنة .

وما أن فرغنا من رؤية البناء المنهجي للملحمة ، بات من الصعب أن نعد النصوص المتعلقة بشخصيته باليغانث « سجل حوادث » أو أن نعتبر قصة الانتقام « اضافة » ، وحتى اذا ما قدرنا الشعر فقط ، من أين سنقوم بالقطع ؟ بعد وفاة رولاند ؟ لكن كنا قد سمعنا لتونا صوت البوق وهو يجلس ، وصوت الذفير والابواق الامبراطورية ، وبعد الانتقام من مارسليون هل نترك البكاء على رولاند ، أم نترك وفاة الدا ، أم ندع حكاية غاندلون بلا نهاية ، هل نفعل ذلك فنحسر الكثير الكثير ؟ ولقد نسيت ، حتى قرأت الملحمة ثانية ، فعرفت كم هو جميل ، لابل كم هو مشرق النصف الثاني من نشيد رولاند ، فقد جعل الاسطول المسلم ، بمشاعله التي لاتعد ولا تحصى ، الليل جميلا وأضاء ساحل اسبانيا بطوله ، ولع مثل

صاروخ ألعاب متلألئ الألوان ، وهناك صورة مارسليون وهو يموت وقد جلاله العار ، يموت في مخدعه العالي والمقيت ، وهو يسلم قفازه واقطاعه الى باليغانت ، مضفيا عليه شرفا لم يتمتع به خلال حياته ، ثم هناك المبارزة الاخيرة للمعركة الاخيرة عندما اشتبك هذان الشيخان المرعبان بالقتال يدا بيد ، ووقفت الارض والسماء حابسة أنفاسها تنتظر النتيجة ، وهي لحظة يبدو أنها حدثت خارج الزمان ، لقد كانا عظيمان وقديمان بشكل خارق ولحيتهما « بيضاوتان مثل أي وردة على شوكة » وتلقى شارلمان لكمة كاد يسقط أرضا بسببها ، وأتاه صوت القديس جبرائيل فاستعاد وعيه واسترد قواه ، ذلك أن الصوت السماوي تتباين قوته عن صوت التقوى الخافت :

وقال : « ماأنت مقبل عليه أيها الملك العظيم ؟ »

وتوجد هنا قسوة حقيقية ، كان بإمكان القديس ثيراس أوف أفيللا ملاحظتها ، وتبعث الأحداث بعضها بعضا بسرعة صحيحة ، وبدون اضاعة كلمة واحدة ، وذلك من الدخول الى سرقسطة ، الى الرحلة الجنائزية الى بلاي ، الى العذوبة الى اكس (آخن) الى وفاة ألدو ، الى أعمال الاستئناف نهابا وأيابا أثناء المحاكمة ، الى المحنة بالقتال ، الى الاعدام المريع لغانلون ، كل ذلك مع المشهد الصغير اللطيف المتعلق بتعميد براميموند ، وسيكون من السهل عدم تدارك هذه السرعة بسبب التسارع ، سهل ، ولكنه مصطنع ، وهذا ما صنعناه مع أعمال الخصام الخاصة ، واللا حسم ولا قرار ، والتطور البطيء للنقاش والتأمر ، فالأحداث الآن ضربة من ضربات مطرقة الرب ، ولهذا وقعت بسرعة ، وهناك عيب عام امتاز به القصاص في العصور الوسطى هو عدم القدرة على توزيع فراغاتهم لتتواءم مع أوزانهم الشعرية ، لكن المهم أن يعرف المرء موضوع الحديث ، وهكذا فإن نشيد رولاند وأن كان قصيرا وبسيطا في أسلوبه قد حقق الوصول الى درجة ملحمة ، إنه ليس كتاب سيرة رومانسية ، بل شعر ملحمي عظيم حول موضوع عظيم .

وبين الملاحم الشعرية العظيمة في العالم لعل ملحمة رولاند هي
الامتز ، ليس في الموضوع فقط بل في المعالجة أيضا ، فالأسلوب
غير مزخرف كليا ، هناك تصريحات مباشرة ، وخطابات
مباشرة ، ونادرا ماتجد أصداء عامة ، كل ما هناك تجد هنا وهناك
خلاصات حكيمة تجمال الأوضاع أو تشير الى المقاصد الخفية
والمعنوية .

عندما يعرف أنه لن يكون هناك أسرى
سيقاتل الرجال بكل شجاعة وسيتمسكون بصدفوفهم
الخيانة تدمر نفسها وتدمر الآخرين أيضا

ويوجد بين الأربعة آلاف بيت أقل من نصف دزينة من التشايبه
البلاغية ، وهذه التشايبه ليست مثل تشايبه هومر ، وهي لم تحكم
صنعها من أجل خاطرها ، بل لتعبر عن أشياء بديهية بأدنى الحدود
وأبسط الكلمات :

لم يكن الفهد أو الأسد حادا قط مثله
لحيته بيضاء مثل أي وربة من ورود الربيع
ومثلما يهرب الغزال أمام كلب صيد الغزلان
أبدى المسلمون أعقابهم وهربوا أمام رولاند

وأعقت أعمال المبارزة أحدهما الآخر ، مع قليل من محاولات
التدوين ، بل صدرت كلها عن الوصف نفسه ، الأبيات نفسها وكذلك
أنصاف الأبيات ، ولائحة الحشود نفسها ، والتعليقات نفسها من
البداية الى النهاية ، فهذا ما يقتضيه بناء الملحمة ، ولذلك جميع
الأبطال شجعان وكل منهم مقدام ، طليت خوذاتهم
بالذهب ، مهورهم سريعة الجريان أسلحتهم متينة ، وسالت الدماء
على الأعشاب الخضراء ناصعة براءة ، وتم الأيحاء بهذا المشهد في
بيت أو بيتين :

الهضاب عالية والوحيان عميقة مظلمة
الصخور مخيفة والشعاب عابسة مريعة
وكان النهار مشرقا وتلألا نور الشمس بوضوح

وقام في مواجهة، هذه الخلفية الأزرق والأبيض والأرجواني
والذهبي ، والأشرطة البراقة ، والترسة الملونة والمرصعة
بالكريستال البراق والمنسطح المقطوع باتقان مثل رمز خط على قطعة
من الرق ، وإذا ما قررنا ألا نجد أية متعة بل تجارب وتعقيدات
فالأفضل لنا أن نترك ملحمة رولاند وشأنها ، أنها تقدم لتوقعاتنا
المتداخلة أضيق الحلول وأشدها اختصارا : المسلمون على
خطأ ، والمسيحيون جميعا على صواب ، ومايهم هو الشجاعة
والاخلاص ، والوفاة النبيلة تاج حياة نبيلة .

وتغير الزمان ، وانهار البناء الاقطاعي العظيم ، وجاءت الثقافة
الجديدة من الشرق ، « وعلم بهجة » الحب من بروفانس ، وأعطت
القلعة مكانها للبلاط ، وحول قصاص الحكايات نفسه من القاعة
الصاخبة الى العزلة الهادئة ، وتبددت الموسيقى الخشنة لروايات
الاعمال واضمحلت ، وتخلى السجع عن مكانه لصالح القافية ، أما
القصائد الطوال والكثيرة التكرار وذوات الأشكال والأبنية غير
المحكمة فقد حل محلها المقطعات المقفاة المتدفقة بلا عوائق والرشيقة
بالوقت نفسه والنقية ، وتخلى شارلمان عن مكانه لصالح إرثر
البريطاني ، وقام مقام رولاند وأولفر فرسان الطاولة
المستديرة ، ثم عاود هؤلاء الظهور بعد قرون بمثابة الأبطال
الغامضين وغير الطبيعيين ، لشدة المبالغة ، لدى
بوياردو ، وأريستو ، ومع منتصف القرن الثاني عشر تغيبت
الملحمة وقام في مكانها الرومانسيات ، ونسيت الآن معظم أناشيد
الاعمال الا من قبل الباحثين ، ومن الذي ما يزال يتذكر
اسماء : وليم دي أورانج ، وراؤول دي كامبراي ، وكواتر
فلزايمار ، وجيرارت دي فيين ، وحقل الساكانز ؟ قد يكونوا

قلة ، لكن مع ذلك ما يزال صوت بوق رولاند يصدر خلال ممر رونسيفو « يا الهي كم هو محزن صوت البوق في قلب الغابات »

٢ - الصورة الاقطاعية:

غالبا ما استخدمت عبارة « عصور وسطى » بشكل غير محدود لتغطي الفترة الممتدة من نهاية عصور الظلام (حوالي القرن التاسع) الى بداية عصر النهضة (حوالي القرن السادس عشر) ومن السهل أن نخرج بانطباع أن المجتمع الاوروبي بقي خلال تلك الفترة متشابها بعضه من بعض ، وكان كله منظما بشكل ماعلى أساس « النظام الاقطاعي » وهذه اليتنا القانونية والاجتماعية حتى هذا اليوم ، لكن التنظيم الاقطاعي الاصيل كان قد بدأ بالتمزق في كل مكان تقريبا في حوالي القرن الحادي عشر ، (الوقت الذي دونت فيه ملحمة رولاند كتابة للمرة الاولى) ليتخلى عن مواقعه لصالح نمط من الحكومات الاكثر مركزية في ظل التيجان التي تزايدت قوتها بشكل كبير ، وممع منتصف القرن الثاني عشر كان وجه المجتمع قد تبدل كليا ، فقد توفرت ثقافة جديدة وأدب جديد ، ومواثيق جديدة للعلاقة والسلوك بين الرجل والمرأة ، وأخلاق جديدة ، وعادات جديدة ، وأسلحة جديدة ، واهتمامات جديدة ، وتطورات جديدة في الكنيسة والقلعة ، والمعسكر والبلاط ، وان هذا ما نذكره بالعادة فيه عندما نسمع عبارة « العصور الوسطى » لان القصة والصورة جعلتهم معروفين بالنسبة لنا ، لكن نشيد رولاند ينتمي الى قلب الفترة غير المتطورة ، وعندما جعل انعدام الامن الكلي في الحياة من القوة المادية الضرورية التي هي أساسية لعدد كبير من الفضائل ، وكان الشغل الشاغل لكل بارون في أن يجعل من نفسه ملاذا قويا للقاطنين على أرضه ، وبناء عليه جاءت البنية الاقطاعية حسبما ظهرت - بشكل غير مقصود التنظيم ، من الاوضاع السائدة ، بنية مجتمع منجذب بشكل دائم الى الاعمال الحربية ، وكانت أغانيه كلها تقريبا حكاياته حول المقاتلين الشجعان والاعمال البطولية في